



دراسات

موازن القوى الإقليمية بعد انهيار العراق:  
دراسة في إدارة توزيع القوة وتجلياتها في منطقة الخليج  
والشرق الأوسط

مروان قبلان | سبتمبر 2015

موازن القوى الإقليمية بعد انهيار العراق: دراسة في إدارة توزيع القوة وتجلياتها في منطقة الخليج والشرق الأوسط

سلسلة: دراسات

مروان قبلان | سبتمبر 2015

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2015

---

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية عربية للعلوم الاجتماعية والعلوم الاجتماعية التطبيقية والتاريخ الإقليمي والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاث فهو يولي اهتماماً لدراسة السياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربية أو سياسات دولية تجاه المنطقة العربية، وسواء كانت سياسات حكومية، أو سياسات مؤسسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربية بأدوات العلوم الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، وبمقاربات ومنهجيات تكاملية عابرة للتخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قومي وإنساني عربي، ومن وجود سمات ومصالح مشتركة، وإمكانية تطوير اقتصاد عربي، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامج وخطط من خلال عمله البحثي ومجمل إنتاجه.

---

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع رقم: 826 - منطقة 66

الدفنة

ص.ب: 10277

الدوحة، قطر

هاتف: +974 44199777 | فاكس: +974 44831651

[www.dohainstitute.org](http://www.dohainstitute.org)

1	مقدمة
2	أولاً: مفهوم موازين القوى وتجلياته في المنطقة
6	ثانياً: تشكل موازين القوى الإقليمية وسياقات الحرب الباردة الأولى (من عام 1946 إلى 1979)
9	ثالثاً: موقع العراق في موازين القوى الإقليمية
10	1. منذ نشأة العراق حتى عام 1980
12	2. من حرب الثماني سنوات إلى الاحتواء المزدوج
16	رابعاً: طموحات إيران واستراتيجيات بناء النفوذ قبل غزو العراق
18	خامساً: سقوط العراق: الحلم الإيراني يتحقق
21	1. رد الإقليم على "انفلاش" النفوذ الإيراني
24	2. إيران: محاولة ادراك الحلم الإمبراطوري
27	سادساً: الربيع العربي، السياسة الأميركية وموازن القوى الإقليمية
29	سابعاً: صورة النظام الإقليمي المقبل

## مقدمة

منذ سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، ونشأة الكيانات السياسية المعروفة بشكلها الحالي على أنقاضها، ظهر في المنطقة الممتدة بين الخليج العربي ووادي النيل ميزانا قوة إقليميان متداخلان، يقوم الأول في منطقة الخليج حيث تقع قوة إقليمية مهمة ذات طموحات هيمنة هي إيران، وتعدُّ طرفاً رئيساً في ميزان القوى العربي - الفارسي<sup>1</sup>، فيما نشأ الثاني في منطقة شرق المتوسط حيث تقع إسرائيل وهو ميزان القوى العربي - الإسرائيلي. وكان العراق، بسبب موقعه المركزي وإمكاناته البشرية والطبيعية الكبيرة، القوة الإقليمية الوحيدة التي انتسبت إلى كلا الميزانين وأثرت فيهما، فكثيراً ما شكّل العراق حائط صد أساس في وجه جموح الرغبة الإيرانية في التمدد غرباً باتجاه المتوسط، سواء في عهد الشاه أو في عهد الجمهورية الإسلامية، كما مثل جزءاً أساساً من ميزان الصراع العربي - الإسرائيلي، حيث شارك في جميع الحروب العربية مع إسرائيل التي اعتبرته دوماً خطراً كبيراً على أمنها ووجودها.

أدى الاحتلال الأميركي عام 2003، إلى انهيار العراق وتحييده كقوة إقليمية مركزية، ساعدت غالباً في تحقيق الاستقرار عبر التوازن، وكان تأثير ذلك على عموم المنطقة كبيراً، حيث تسنى لإيران، لأول مرة منذ قرون، أن تسعى جدياً إلى فرض هيمنة إقليمية على شكل قوس نفوذ متصل يمتد من غرب أفغانستان حتى ساحل المتوسط عبر العراق، الأمر الذي خلق حالة من اللااستقرار تهدد مستقبل المنطقة ووجودها بالشكل والصورة اللذين سادا منذ الحرب العالمية الأولى.

تعالج هذه الدراسة تأثير سقوط العراق في موازين القوى الإقليمية وفي مستقبل المنطقة، وترى أن القوة العراقية كانت حجر الزاوية في النظام الإقليمي الشرق أوسطي الذي ارتبط إلى حد بعيد بتحالفات وتوازنات الحرب الباردة. لكن نهاية الثنائية القطبية وهيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولي بعد سقوط الشيوعية، ساهما في القضاء على حال التوازن الإقليمي التي كانت مطلباً من متطلبات التنافس الأميركي - السوفييتي ومفرزاً أساساً من مفرزاته. وقد أدى

---

<sup>1</sup> بدأ هذا الميزان يأخذ طابعاً طائفياً في السنوات العشر التي تلت غزو العراق، لأن إيران التي تعتمد الإمامية الشيعية الاثني عشرية مذهباً رسمياً للدولة تقف في طرف، فيما تقف دول المنطقة التي يغلب على سكانها اتباع المذهب السني في طرف آخر، ويشمل ذلك دول الخليج العربي وتركيا والمعارضات سنية المذهب في سورية والعراق ولبنان وغيرها.

انهيار العراق إلى "انفلاش" النفوذ الإيراني وإدخال المنطقة في حالة من السيولة وعدم الاستقرار. لكن الدراسة تستنتج مع ذلك أن إيران فقدت مرة أخرى الفرصة لتشكيل المنطقة وفق رؤيتها على الرغم من تهيؤ الظروف أمامها لفعل ذلك، فميل المنطقة إلى التوازن ومنع محاولات الهيمنة أحبطا محاولاتها الاستفادة من سقوط العراق لتحقيق حلم بناء قوة مهيمنة في عموم الإقليم، فما إن بدأت إيران ببسط نفوذها على العراق وملء الفراغ الناجم عن انسحاب الأميركيين منه، حتى اندلعت الثورة السورية، فهددت بتقويض مجمل المشروع الإيراني، لأن إيران تحولت من الهجوم إلى الدفاع عن مكتسبات اشتغلت عليها عقوداً طويلة.

### أولاً: مفهوم موازين القوى وتجلياته في المنطقة

يرى هانز مارغنتاو (Hans J. Morgenthau)، أبرز علماء السياسة في القرن العشرين في كتابه الشهير *السياسة بين الأمم: الصراع من أجل القوة والسلام*، المنشور عام 1948، أن الوضع القائم (The Status Quo) يعني الحفاظ على توزيع القوة القائم في منطقة معينة في لحظة تاريخية معينة. ويشير الوضع القائم بتعريفه البسيط إلى حالة استقرار تتحقق من خلال نشوء موازين قوى تمنع الهيمنة<sup>2</sup>. وبناء عليه إذا تغير توزيع القوة ينهار الوضع القائم وتتساقط حالة من اللااستقرار أو الهيمنة تستمر حتى يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل التغيير، وهذا أمر لا يتحقق إلا خسارة الطرف المنتصر أو المهيم أو بتنازله عن مكاسبه التي حصل عليها نتيجة الانهيار. وقد يحصل انهيار الوضع القائم نتيجة تدخل قوى قد تكون من داخل النظام أو من خارجه. ويعتقد مورغنتاو أن أفضل وسيلة لإدارة استخدام القوة، هي توازن القوى الذي يعرفه على أنه توزيع متساو نسبياً للقوة أو أنه أي توزيع للقوة أو سياسة تستهدف قيام وضع محدد يحول دون سيطرة مطلقة لطرف معين<sup>3</sup>.

بالنسبة إلى نيبور (Niebuhr) فإن توازن القوى يمثل الأداة التنظيمية لتحقيق الحد الأدنى من العدالة والاستقرار في النظام، ويرى أن بعض توازنات القوى يشكل القاعدة لتحقيق بعض العدالة في العلاقات الدولية وحيثما يكون

<sup>2</sup> Hans J. Morgenthau, *Politics among Nations; The Struggle for Power and Peace* (New York: A. A. Knopf, 1948), p. 6.

<sup>3</sup> المصدر نفسه.

عدم التساوي في القوى كبيراً أو عندما ينتفي التوازن، لا يمكن أي دعوات أخلاقية أو عقلانية أن تحقق العدالة<sup>4</sup>. وعلى الرغم من إقراره بأن توازن القوى نظام غير مستقر ومتحول، يرى سبيكمان (Spykman) مع ذلك أنه عنصر أساس لنظام دولي يركز على علاقات بين دول مستقلة<sup>5</sup>. وفي نظام دولي لا توجد فيه قوة قاهرة قادرة على فرض الأمن والاستقرار، يصبح توازن القوى، بحسب شومان (SCHUMANN)، ميكانيكياً منظماً ومهماً، يكبح طموحات الهيمنة<sup>6</sup>. ويرى وولفرز (Wolfers) أن مفهوم توازن القوى يمكن استخدامه لوصف النظام الدولي المعاصر، ومع أن هذا المفهوم حمل معاني عدة فإن وولفرز استخدمه ليعني تساويًا نسبيًا في توزيع القوى بين خصمين، وإلا فإن العكس يكون الهيمنة أو السيطرة التامة<sup>7</sup>.

لكن هناك تياراً فكرياً آخر في العلاقات الدولية يرى أن تحقيق الاستقرار لا يتم بالضرورة من خلال التوازن، بل يمكن أن يتحقق أيضاً عبر الهيمنة ذاتها التي يحاول التوازن منعها. فالمفكر الفرنسي ريمون آرون (Raymond Aron) يرى أن السلام يتحقق في ثلاثة أشكال: التوازن، والهيمنة، والإمبراطورية<sup>8</sup>، وعند دراسة أي فترة تاريخية نجد أن وضعية القوى السياسية في النظام، بحسب آرون، إما متوازنة، وإما تهيمن عليها إحدى القوى، أو إن إحدى الوحدات السياسية التي تفوق قدراتها ما لدى الآخرين، بشكل كبير جداً. وبين السلام القائم على التوازن والسلام الإمبراطوري ثمة حالة وصفها آرون بأنها السلام القائم على الهيمنة، حيث لا يناع أي من الوحدات السياسية الوحدة الكبرى تفوقها. غير أنه في نظام "الهيمنة"، لا تسعى الدولة المهيمنة إلى ابتلاع الوحدات الأخرى على الرغم من أن تلك الوحدات لا تحاول

---

<sup>4</sup> Reinhold Niebuhr, *Man's Nature and his Communities; Essays on the Dynamics and Enigmas of Man's Personal and Social Existence*, The Scribner Library, SL162. Lyceum Editions (New York: Scribner, 1965), pp. 90.

<sup>5</sup> Nicholas John Spykman, *America's Strategy in World Politics: The United States and the Balance of Power* (New York: Harcourt, Brace and company, 1942), p. 18.

<sup>6</sup> FREDERICK. L. SCHUMANN, *INTERNATIONAL POLITICS, THE DESTINY OF THE WESTERN STATE SYSTEM*, MAPS BY GEORGE D. BRODSKY, 4<sup>TH</sup> ED. (NEW YORK: MCGRAW-HILL BOOK CO., 1948), P. 70.

<sup>7</sup> Arnold Wolfers, *Discord and Collaboration; Essays on International Politics* (Baltimore: Johns Hopkins Press, 1962), pp. 67-80.

<sup>8</sup> Raymond Aron, *Peace and War: A Theory of International Relations*, Translated from the French by Richard Howard and Annette Baker Fox (Garden City, NY: Doubleday & Co., 1966), pp. 591-600.

تغيير الواقع القائم، في حين أنه في الحالة الإمبراطورية، تميل القوة المهيمنة إلى ابتلاع الوحدات الأخرى.

يعاود آرون مع ذلك تقديم أنموذجين للنظام الذي يتناوله: المتجانس وغير المتجانس. في الأنموذج الأول تنتمي الدول إلى قيم النظام نفسها وتحمل المفاهيم السياسية ذاتها، في حين تنتمي الدول في النظام غير المتجانس إلى مبادئ مختلفة وتسعى إلى تحقيق قيم متناقضة. وقد تحدث منازعات داخل النظام المتجانس، غير أن النظام نفسه لا يكون معرضاً للخطر، أما في النظام غير المتجانس فيجري الصراع على طبيعة النظام نفسه، وليس على أهداف في إطار هذا النظام. هنا تبرز من جديد أشكال مقاومة للهيمنة ومساعد لإعادة التوازن، حيث تحاول الأطراف المعنية تجنب لحظة تجد فيها نفسها تحت رحمة المنافس، بمعنى منعه من الحصول على عناصر قوة تفوق ما لديهم وفرض من ثم قيمه عليهم، في حين يصبح هدف الطرف الرئيس في كل تحالف، أو قائد التحالف، هو السعي إلى منع نمو قوة التحالف المعادي وتدعيم التماسك في داخل تحالفه.<sup>9</sup>

منذ ظهور المنطقة بشكلها الحالي بعد الحرب العالمية الأولى، قامت كغيرها من المناطق التي ظلت تهتم بالجيو - سياسي على حساب الجيو - اقتصادي، على توازنات إقليمية دقيقة وحساسة، ونشأ فيها بعد الحرب العالمية الثانية ميزاناً قوى رئيسان أحدهما في شرق المتوسط والثاني في منطقة الخليج، ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بظروف الحرب الباردة وسياقاتها. وقد تمحور ميزان القوى الأول حول الصراع على فلسطين واشتملت أطرافه على إسرائيل المدعومة غريباً، من جهة، والدول العربية (مصر وسورية والعراق بشكل خاص) التي كانت تحصل على دعم من الاتحاد السوفياتي، من جهة أخرى<sup>10</sup>. وعلى الرغم من عدم التكافؤ في مقدار الدعم الغربي المقدم لإسرائيل عسكرياً واقتصادياً وفي مستواه، وذلك المقدم من الروس إلى العرب، إلا أن ميزان القوى القائم منع، مع ذلك، إسرائيل من فرض هيمنتها وإرادتها على العرب خاصة بعد انتصارها في حرب عام 1967. لكن هذا الميزان اختل بشدة نتيجة توقيع مصر اتفاقية كامب ديفيد عام 1978 ثم اتفاقية السلام مع إسرائيل في العام التالي، ثم تلقى ضربة أخرى مع انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي. لكن ميزان القوى العربي - الإسرائيلي تمكن من التأقلم مع هذه المتغيرات في بنية

<sup>9</sup> Aron, *Peace and War*.

<sup>10</sup> عن موازن القوى في الشرق الأوسط وتحالفاته، انظر:

Stephen M. Walt, *The Origins of Alliances*, Cornell Studies in Security Affairs (Ithaca: Cornell University Press, 1990).

النظام الدولي والإقليمي وذلك عبر التحول من حالته التقليدية القائمة على التوازن بين دول، إلى ميزان قوى لاتناظري أو غير نظامي (Asymmetric) حيث تقف إسرائيل في مواجهة تنظيمات مقاومة "دون - الدولة" مدعومة من دول عربية وإقليمية، شكلت عائقاً أمام فرض الهيمنة عبر القوة<sup>11</sup>.

أما ميزان القوى الآخر في المنطقة فقد نشأ على صفتي الخليج بين العراق ودول الخليج العربية، من جهة، وإيران، من جهة أخرى. واستمر هذا الميزان يؤدي غرضه في تحقيق حالة من الاستقرار النسبي في المنطقة لنحو ثمانين عاماً - أي منذ سقوط الدولة العثمانية عام 1918 حتى انهيار العراق عام 2003. شكّل الغزو الأميركي للعراق أول تدخل عسكري خارجي شامل في المنطقة العربية منذ الحرب العالمية الأولى، وترك تداعيات خطيرة على جيوبوليتيك المنطقة وموازن القوى فيها. صحيح أن حرب تحرير الكويت (1991) كانت تدخلاً عسكرياً أميركياً واسعاً، لكنه لم يؤدّ إلا إلى إعادة التوازن إلى الحال التي كانت عليها قبل غزو الكويت، عبر منع قوة إقليمية كبيرة (هي العراق) من تركيز كثير من القوة والثروة بين أيديها ومن ثم التحول إلى قوة مهيمنة إقليمياً<sup>12</sup>. شجع النظام الدولي - ونقصد به هنا القوى الكبرى، خاصة الولايات المتحدة، على استمرار حال التوازن في الخليج كبديل من الاحتفاظ بتواجد عسكري كبير في المنطقة<sup>13</sup>. وتكرست هذه السياسة خصوصاً منذ مطلع السبعينيات كوسيلة لكبح جماح القوتين الإقليميتين الكبيرتين - أي العراق وإيران - وذلك بعد أن غدا صعباً على واشنطن التدخل عسكرياً بشكل مباشر بسبب المعارضة الداخلية القوية التي جاءت على خلفية التورط في فيتنام. وعلى الرغم من أن واشنطن تمكنت من التغلب على عقدة فيتنام، عندما قامت بإرسال مئات الآلاف من جنودها إلى المنطقة لإخراج العراق من الكويت عام 1991، إلا أنها عادت للعمل بسياسة توازن القوى في الخليج واستمرت فيها حتى عام 2003<sup>14</sup>.

<sup>11</sup> Anthony H. Cordesman, *Arab-Israeli Military Forces in an Era of Asymmetric Wars* (Stanford: Stanford University Press, 2008).

<sup>12</sup> Marc Weller, «The US, Iraq and the Use of Force in a Unipolar World,» *Survival: Global Politics and Strategy*, vol. 41, no. 4 (Winter 1999-2000), pp. 81-100.

<sup>13</sup> Cyrus Vance, *Hard Choices: Critical Years in America's Foreign Policy* (New York: Simon & Schuster, 1983), pp. 315.

<sup>14</sup> انظر في هذا الصدد:



## ثانياً: تشكل موازين القوى الإقليمية وسياقات الحرب الباردة الأولى (من عام 1946 إلى

1979)<sup>15</sup>

ارتبطت موازين القوى الإقليمية في منطقة الخليج والشرق الأوسط بحالة الصراع الدولي التي سادت خلال سنوات الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، والتي انطلقت عام 1946، حين تحولت موازين القوى الإقليمية إلى طبقة أدنى مرتبطة عضوياً بالطبقة الأعلى وهي الميزان الدولي، مع ظهور ما أصبح يدعى بالدول التابعة (client states)<sup>16</sup>. وكانت الولايات المتحدة الفاعل الخارجي الأهم في تشكيل موازين القوى الإقليمية في منطقة الخليج والشرق الأوسط في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلى درجة أن تشكل هذه الموازين يكاد لا يفصل عن توجهات السياسة الأميركية في المنطقة<sup>17</sup>.

بعد هزيمة ألمانيا واليابان في الحرب الثانية، تركزت السياسة الأميركية على منع الاتحاد السوفياتي من التغلغل جنوباً وغرباً وذلك باعتماد نظرية "الاحتواء" التي وضعها مدير إدارة التخطيط في وزارة الخارجية والسفير السابق إلى موسكو جورج كينان (Kennan). نظرية الاحتواء هذه تحولت إلى إطار سياسة عملي عندما تبنتها إدارة الرئيس ترومان وجعلت منها استراتيجية متكاملة لمرحلة ما بعد الحرب<sup>18</sup>، عززت لاحقاً بمبدأ ترومان والنقطة الرابعة<sup>19</sup>. ففي آذار/ مارس 1947 قدّم ترومان مشروعاً للكونغرس أبدى خلاله استعداد بلاده لتقديم الدعم إلى

---

Daniel C. Hallin, «The Media, The War in Vietnam, and Political Support: A Critique of the Thesis of an Oppositional Media,» *The Journal of Politics*, vol. 46, no. 1 (February 1984), pp. 2–23.

<sup>15</sup> يتفق خبراء العلاقات الدولية على إطلاق اسم الحرب الباردة الأولى على هذه الفترة، لأن انفراجاً في العلاقات الدولية حصل بعد انفتاح واشنطن على الصين والتوصل إلى اتفاقية للحد من الأسلحة الاستراتيجية بين القوتين العظميين مطلع السبعينيات، إلا أن الغزو السوفياتي لأفغانستان أطلق الشرارة لما أصبح يعرف بالحرب الباردة الثانية التي امتدت في فترة من 1979 إلى 1989. انظر:

Fred Halliday, *The Making of the Second Cold War*, 2<sup>nd</sup> ed. (London: Verso, 1986).

<sup>16</sup> انظر في هذا الصدد:

Alan R. Taylor, *The Superpowers and the Middle East* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1991).

<sup>17</sup> Steven L. Spiegel, *The Other Arab–Israeli Conflict: Making America’s Middle East Policy, from Truman to Reagan* (Chicago; London: University of Chicago Press, 1985), pp. 83–89.

<sup>18</sup> <<http://history.state.gov/milestones/1945–1952/kennan>>.

<sup>19</sup> سميت بالنقطة الرابعة لأن ترتيبها جاء رابعاً في الخطاب الذي ألقاه ترومان وأعلن فيه مبدأ احتواء الشيوعية.

الدول المعرّضة للخطر الشيوعي<sup>20</sup>. واكتسب هذا المشروع اهتمامًا متزايدًا بعد أن نجح الاتحاد السوفياتي في اختراق معظم أوروبا الشرقية وبسط نفوذه عليها<sup>21</sup>. ولمنع اختراق مماثل تركّز الاهتمام الأميركي على منطقة الشرق الأوسط (والخليج) التي زادت أهميتها بعد الاكتشافات النفطية. وأملًا في تنفيذ عملية الاحتواء راحت واشنطن تعمل على بناء ما ابتدأ يُعرف بحزام الأمن الشمالي، لينصبّ الاهتمام خلال هذه المرحلة على تركيا، وإيران وباكستان لاحتواء الاتحاد السوفياتي، ومنع تغلّغه باتجاه المياه الدافئة ومنابع النفط<sup>22</sup>. وكانت الولايات المتحدة قد نجحت في العام السابق في إجبار موسكو على سحب قواتها من إيران، والتخلي عن مطالبتها بالسيادة المشتركة على المضائق التركية ثم أحبطت محاولة الشيوعيين في اليونان للسيطرة على السلطة<sup>23</sup>. كما أحبطت جهد الشيوعيين وأنصار موسكو للفوز في انتخابات إيطاليا الأولى التي جرت خلال الفترة نفسها<sup>24</sup>.

مع تفاقم العداء واستحكامه، تمحورت السياسة الأميركية لمعظم فترة الخمسينيات حول عزل الاتحاد السوفياتي، وخلال عهد الرئيس آيزنهاور شكلت المنطقة العربية مسرح الصراع الرئيس بين القوتين العظميين، وانتقل التركيز بذلك من منطقة الحزام الشمالي إلى الخليج وقلب المنطقة العربية. فأطاحت الاستخبارات الأميركية رئيس الحكومة الإيرانية المنتخب محمد مصدّق وأعدت الشاه إلى السلطة<sup>25</sup>. كان مصدق زعيمًا قوميًا بنى نفوذه على معارضة التدخل البريطاني في شؤون بلاده وتأميم صناعة النفط التي كانت تتحكم بها شركة النفط الأنكلو - إيرانية<sup>26</sup>. وقد أثارت

---

<sup>20</sup> <<http://history.state.gov/milestones/1945-1952/truman-doctrine>>.

<sup>21</sup> Dankwart A. Rustow, «Defense of the Near East,» *Foreign Affairs*, vol. 34, no. 2 (January 1956), pp. 271-286.

<sup>22</sup> Behçet K. Yesilbursa, «The American Concept of the «Northern Tier» Defence Project and the Signing of the Turco-Pakistani Agreement 1953-54,» *Middle Eastern Studies*, vol. 37, no. 3 (July 2001), pp. 59-110.

<sup>23</sup> Dean Acheson, Present at the Creation: My Years in the State Department (New York: W. W. Norton, 1969), pp. 194-201.

<sup>24</sup> انظر: Christian G. Appy, ed., *Cold War Constructions: The Political Culture of United States Imperialism, 1945-1966*, Culture, Politics, and the Cold War (Amherst: University of Massachusetts Press, 2000).

<sup>25</sup> Kermit Roosevelt, *Countercoup, The Struggle for the Control of Iran* (New York: McGraw-Hill, 1979).

<sup>26</sup> شركة النفط الأنكلو - إيرانية هي شركة نفط تأسست عام 1908 تحت اسم شركة النفط الأنكلو - فارسية، بعد اكتشاف كميات كبيرة من النفط في مسجد سليمان في إيران. تغيّر الاسم إلى شركة النفط الأنكلو - إيرانية عام 1935، ثم تغيّر مرة أخرى ليصبح اسمها برينيتش بتروليوم

علاقته بحزب تودة الشيوعي الإيراني مخاوف واشنطن التي قررت الانقلاب عليه، بعد أن دعت وصوله إلى السلطة قبل ذلك بعامين<sup>27</sup>. وفي ربع القرن التالي أي منذ عام 1953 - تاريخ إطاحة مصدق - حتى قيام الثورة الإسلامية عام 1978، انخرطت الولايات المتحدة في بناء إيران كدولة تابعة (Client State)<sup>28</sup>. وزاد الدعم الأميركي لإيران خصوصاً بعد سقوط النظام الملكي في العراق وتولّى عبد الكريم قاسم وحلفائه الشيوعيين الحكم في بغداد.

لم يؤد سقوط حكم قاسم عام 1963 إلى تحسن كبير في العلاقات العراقية - الأميركية، فعلى الرغم من أن إدارة الرئيس كينيدي كانت أكثر ميلاً إلى فصل علاقاتها العربية عن صراعها مع موسكو، فاهتمت بتحسين الأجواء مع القوميين العرب عمومًا، بمن فيهم حكام البعث في العراق، إلا أن تفجر الثورة في اليمن قضى على إمكان الاستمرار في هذا الاتجاه بسبب الخوف على السعودية<sup>29</sup>. ولم تلبث العلاقات العراقية - الأميركية أن انقطعت كلياً في حزيران 1967 بسبب الدعم الأميركي لإسرائيل في عدوانها على العرب.

في مطلع السبعينيات خرج البريطانيون كلياً من منطقة الخليج، وبالتزامن توصلت القوات العظميان إلى اتفاق للحد من الأسلحة الاستراتيجية الهجومية والصواريخ الباليستية (SALT1) عام 1972، كما تحقق انفراج واسع على الساحة الدولية عندما قام الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون بزيارة بكين<sup>30</sup>. هذه التطورات انعكست تغيراً في اهتمامات واشنطن في المنطقة، فتناقصت أهمية شرق المتوسط في الاستراتيجية الأميركية في مقابل تنامي أهمية الخليج، وبناء عليه راحت واشنطن تركز على إيران التي حولها الدعم الأميركي الكبير إلى "شرطي"

---

عام 1954 وحاليًا شركة بي بي. تعدّ شركة النفط الأنكلو- إيرانية أول شركة نفطية تعمل في الشرق الأوسط، وفي عام 1951 قام محمد مصدق بتأميم الشركة وكانت هذه الخطوة سبباً في الانقلاب عليه عام 1953. انظر:

WM. Roger Louis, «Musaddiq and the Dilemmas of British Imperialism,» in: James A. Bill and WM. Roger Louis, eds., *Musaddiq, Iranian Nationalism, and Oil* (London: I.B. Tauris, 1988), pp. 228-260.

<sup>27</sup> Richard W. Cottam, *Iran and the United States: A Cold War Case Study*, Pitt Series in Policy and Institutional Studies (Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1988), p. 103.

<sup>28</sup> Mark J. Gasiorowski, *U.S. Foreign Policy and the Shah: Building a Client State in Iran* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991).

<sup>29</sup> Fawaz A. Gerges, «The Kennedy Administration and the Egyptian-Saudi Conflict in Yemen: Co-Opting Arab Nationalism,» *Middle East Journal*, vol. 49, no. 2 (Spring 1995), pp. 292-311.

<sup>30</sup> Halliday, pp. 32-56.

للدفاع عن المصالح الأميركية في الخليج، من خلال تبني استراتيجية الأعمدة التوائم (Twin Pillars)<sup>31</sup> التي جعلت من إيران والسعودية ركنين أساسيين في سياسة واشنطن في المنطقة<sup>32</sup>.

نتيجة الحظر النفطي الذي فرضه العرب على الغرب في أثناء حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973 بين العرب وإسرائيل، تحول موضوع تأمين إمدادات نفط كافية للولايات المتحدة، بأسعار رخيصة إلى أولوية في السياسة الأميركية، فأقر مشروع لبناء احتياط استراتيجي يجعل أميركا قادرة على الصمود في وجه حظر نفطي، مدته تسعين يومًا، تتمكن خلاله من كسر الحظر أو احتلال آبار النفط<sup>33</sup>. ومع سقوط نظام الشاه في إيران وغزو السوفييات أفغانستان قرر الرئيس جيمي كارتر إنشاء قوات للتدخل السريع بمهمة محددة، هي احتلال آبار الخليج في حال تطبيق حظر جديد للنفط أو وقوع هذه الآبار في قبضة جهات معادية<sup>34</sup>. وحتى نهاية الحرب الباردة، تمكنت الولايات المتحدة من منع السوفييات من الوصول إلى منطقة الخليج واحتياطات النفط الكبيرة فيها، عبر استنزافهم في أفغانستان<sup>35</sup>، كما تمكنت من احتواء ميول الإيرانيين إلى تصدير ثورتهم من خلال حرب الثماني سنوات مع العراق.

### ثالثًا: موقع العراق في موازين القوى الإقليمية

تبدأ العراق منذ نشأته الحديثة عام 1920 موقعًا متميزًا في موازين القوى الإقليمية وذلك لأسباب مرتبطة بموقعه المركزي في معادلات القوة في المنطقة وجغرافيتها السياسية، وعوامل القوة التي يمتلكها نتيجة

<sup>31</sup> «Nixon's Strategy in the Middle East,» *MERIP Reports*, no. 13 (November 1972), pp. 3–8.

<sup>32</sup> Amitav Acharya, *U.S. Military Strategy in the Gulf: Origins and Evolution under the Carter and Reagan Administrations* (London: Routledge, 1989).

<sup>33</sup> Bernard Reich, «United States Interests in the Middle East,» in: Haim Shaked and Itamar Rabinovich, eds., *The Middle East and the United States: Perceptions and Policies*, Collected Papers Series – The Shiloah Center for Middle Eastern and African Studies (London: Transaction Books, 1980), pp. 57–71.

<sup>34</sup> Zbigniew Brzezinski, *Power and Principle: Memoirs of the National Security Adviser 1977–1981* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1983), pp. 371.

<sup>35</sup> Barnett R. Rubin, «Arab Islamists in Afghanistan,» in: John L. Esposito, ed., *Political Islam: Revolution, Radicalism, or Reform?* (Boulder, Colo: Lynne Rienner Publisher, 1997), pp. 179–206.

غناه وتنوع موارده، فضلاً عن تاريخه وحضارته اللذين ساهما في تشكيل هوية وطنية غذت طموحه الدائم لتأدية دور إقليمي مهم على امتداد القرن الماضي.

## 1. منذ نشأة العراق حتى عام 1980

منذ الحرب العالمية الأولى أدرك البريطانيون الذين أوجدوا العراق الحديث، أهمية هذه الدولة ووزنها السياسي والتاريخي في المنطقة، لذلك استأثروا به عندما تقاسموا مع حلفائهم الفرنسيين النفوذ في المنطقة. ومع اكتشاف النفط ازدادت أهمية العراق في نظر الإنكليز، لكن الحرب الباردة هي التي بوأته مركزاً استراتيجياً متميزاً في تنافس القوى العظمى على المنطقة. وشكّل العراق في معظم عقد الخمسينيات مركز جذب للأنظمة المحافظة في مواجهتها المد الشيوعي والناصرية، وظلت بغداد التي احتضنت الحلف الذي حمل اسمها، تقوم بهذا الدور حتى عام 1958 عندما سقطت الملكية وانتقل العراق إلى المعسكر الآخر في إطار حرب باردة عربية، استمر أوارها قرابة ربع قرن، بين المحافظين والقوميين اليساريين. 36 خلال العقدين التاليين شغل العراق بصراع طويل على السلطة بين الشيوعيين والناصريين والبعثيين إلى أن انتهى الأمر إلى الرئيس صدام حسين عام 1979.

جاء صدام إلى سدة السلطة طامحاً لبناء العراق كقوة ذات نفوذ إقليمي مؤثر، ولهذا الغرض كان قد تعاقد على شراء مفاعل نووي من فرنسا في عام 1976، عندما كان نائباً للرئيس. وفيما كان يرسى نظام حكمه في الداخل ويحاول الانطلاق للاضطلاع بدور إقليمي أكبر - شغل العراق بصراعات الحكم وبمعارك مع الحركات الانفصالية الكردية - حتى سقط نظام الشاه في إيران. أحدث سقوط الشاه هزة سياسية في أميركا وبين حلفائها العرب، وأمل بعضهم في أن يكون خروجه مؤقتاً بحيث يعود إلى عرشه كما حدث عام 1953، عندما أطاحت المخابرات الأميركية بحكم خصمه رئيس الوزراء محمد مصدق. لكن سيناريو 1953 بدا غير مرجح هذه المرة. لذلك بدأت واشنطن تسعى إلى التقرب ممن اعتبرتهم معتدلين من زعماء الثورة، الأمر الذي أغضب حلفاءها

---

<sup>36</sup> Malcolm H. Kerr, *The Arab Cold War: Gamal 'Abd al-Nasir and His Rivals, 1958-1970*, 3<sup>rd</sup> ed., Galaxy Book; GB 358 (London: Oxford University Press for Royal Institute of International Affairs, 1971).

العرب، خصوصًا السعودية التي شعرت وكأن أميركا تخلت عن حليف إقليمي مهم صوتًا لمصالحها.<sup>37</sup>

في ظل حال الفوضى التي خلفها سقوط الشاه، وما تبعها من صراع دموي على السلطة بين العلمانيين والإسلاميين في طهران، وجد العراق الفرصة سانحة للتخلص من شروط "اتفاق الجزائر" القاسية التي فرضتها عليه إيران عام 1975، حين تنازل العراق عن حقه في شط العرب في مقابل وقف الشاه دعمه للانفصاليين الأكراد في الشمال. كان صدام يسعى إلى حرب خاطفة محدودة وقصيرة تحسّن شروطه في أي اتفاق يمكن التوصل إليه مع النظام الجديد في طهران، فهو كان يدرك أن إيران التي تفوقه ثلاثة أضعاف في السكان والمساحة والثروات، وكانت "شرطي" أميركا في المنطقة لنحو ثلاثة عقود، لن تكون خصمًا يسهل إيقاع الهزيمة به. لذلك، وعلى الرغم من أن إيران واضبت على قصف القرى الحدودية العراقية بشكل يومي تقريبًا، ولمدة ثلاثة شهور قبل اندلاع الحرب في أيلول/سبتمبر 1980، إلا أن صدام ظل مترددًا في مهاجمتها.<sup>38</sup>

في هذه المرحلة بدأت واشنطن تعرب عن قلقها من تنامي القوة العسكرية العراقية، ومن التقارب الذي أخذ يتسارع بين بغداد وموسكو، لذلك، في عام 1979، كتب بول ولفويتز الذي كان حينها مستشارًا في البنتاغون، إلى الرئيس كارتر يحذره من تنامي نفوذ العراق وخطره على مصالح أميركا في الخليج،<sup>39</sup> وأوصى في تقريره باستئناف صادرات الأسلحة إلى إيران، بعدما انقطعت مع سقوط الشاه، وذلك كبادرة حسن نية تجاه حكومة الثورة.<sup>40</sup> وبالفعل أفرجت أميركا عن قطع غيار عسكرية مهمة لإيران جرى شحنها من طريق مدريد. وحتى اقتحام سفارتها في طهران، ظلت أميركا تراهن على استعادة إيران عبر تأييدها حكومة مهدي بازرگان أول رئيس وزراء إيراني في عهد الجمهورية ضد أنصار الخميني، لكن اقتحام السفارة وطرد بازرگان بدد آمالها كلها باستعادة إيران.<sup>41</sup> بعد أن حسم الخميني الصراع لمصلحته، بدأت واشنطن تسعى إلى إطاحة النظام في إيران

<sup>37</sup> Richard L. Russell, «A Saudi Nuclear Option?» *Survival: Global Politics and Strategy*, vol. 43, no. 2 (Summer 2001), pp. 69–79.

<sup>38</sup> F. Gregory Gause III, «Iraq's Decision to Go to War, 1980 and 1990,» *The Middle East Journal*, vol. 56, no. 1 (Winter 2002), pp. 47–71.

<sup>39</sup> James Mann, *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet* (New York: Viking Penguin, 2004), p. 123.

<sup>40</sup> Gary Sick, *All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran* (New York: Random House, 1985), p. 89.

<sup>41</sup> Brzezinski, pp. 470–476.

بشكل سري، وهو ما شجع العراق على اتخاذ قرار الحرب. واستناداً إلى وعود بدعم مالي عربي قرر صدام في 22 أيلول/ سبتمبر 1980 مهاجمة إيران.<sup>42</sup>

فيما كان هذا يجري في الخليج، كان الصراع العربي - الإسرائيلي يشهد تطورات لا تقل أهمية، فقد أنهت مصر حالة الحرب مع إسرائيل ووقّعت اتفاقية سلام معها. وأدى خروج مصر من الجهد العسكري العربي إلى اختلال ميزان القوى مع إسرائيل، وأعاد خلط التحالفات العربية والإقليمية، فقد اضطرت سورية التي استشعرت خطراً جسيماً بخروج مصر من الصراع مع إسرائيل إلى السعي للتقارب مع خصمها الأيديولوجي، العراق، وذلك في محاولة لتعويض النقص المصري، ودفع بغداد إلى قلب معادلة الصراع مع إسرائيل.<sup>43</sup> بيد أن هذا التقارب لم يستمر طويلاً بسبب الخلاف الشديد بين جناحي البعث السوري والعراقي. ولما اندلعت الحرب العراقية - الإيرانية، قرر النظام السوري الوقوف إلى جانب إيران، حيث بدأت تتبلور في هذه الفترة نظرية تحالف الأقليات، لتبدأ بذلك مسيرة التحالف السوري - الإيراني الذي أدى دوراً مركزياً في رسم سياسات المنطقة وتحديد موازين القوة فيها.

## 2. من حرب الثماني سنوات إلى الاحتواء المزدوج

مع اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية رفع بول ولفوويتز توصية جديدة إلى رؤسائه، دعا فيها إلى تأييد إيران ضد العراق،<sup>44</sup> بيد أن مستشار الأمن القومي زيغنيو بريجنسكي عارض الفكرة بسبب أزمة الرهائن والخوف من ردات فعل الرأي العام في الولايات المتحدة.<sup>45</sup> مع ذلك، عادت إدارة الرئيس ريغن الذي خلف كارتر إلى دراسة الفكرة بعد أن أطلقت طهران سراح الرهائن وردت واشنطن بالإفراج عن صفقة أسلحة جديدة لها، كما قام البنّتاغون بتزويد إيران بصور التقطتها الأقمار الصناعية الأميركية، تبين مواقع وتحشدات القوات العراقية على خطوط المواجهة الرئيسية.<sup>46</sup> وبسبب الخشية من افتضاح العلاقات العسكرية بطهران، أوكلت واشنطن ملف

<sup>42</sup> Gause III, «Iraq's Decision,» pp. 47-71.

<sup>43</sup> Walt, p. 112.

<sup>44</sup> Faisal Mukhyat Abu Sulaib, *U.S. Foreign Policy toward Iraq after 9/11* (Kuwait: Al-Sad Printing Press, Kuwait University, 2010), pp. 176.

<sup>45</sup> Vance, p. 449.

<sup>46</sup> Gause III, «Iraq's Decision,» p. 68, footnote 97.

تسليح إيران إلى إسرائيل.<sup>47</sup> لكن التحالفات تغيرت عندما بدأت كفة إيران ترجح خلال معارك عامي 1982 و1983، فقام دونالد رامسفيلد مبعوثاً من إدارة الرئيس ريغان بزيارة بغداد، ومهد لعودة العلاقات بين البلدين في عام 1984، هذا فيما ظلت إسرائيل تزود إيران بالأسلحة الأميركية حتى انكشف أمرها عام 1986.<sup>48</sup>

أدت الحرب العراقية - الإيرانية إلى حالة فرز جديدة في المنطقة، غلبت فيها الحسابات الجيوسياسية على المواقف الأيديولوجية. فقد وجدت إسرائيل، التي كانت تزود إيران بالأسلحة، أنها في خندق واحد في هذا الشأن مع نظام الرئيس حافظ الأسد ونظام العقيد معمر القذافي اللذين اختارا دعم إيران أيضاً، فيما وقفت كل من مصر والأردن ودول الخليج العربية إلى جانب العراق وأمدوه بوسائل الصمود الممكنة كلها في وجه التحدي الإيراني.

مع انتهاء الحرب العراقية - الإيرانية، برز العراق كقوة إقليمية مهمة، رأى فيها الغرب وبعض العرب تهديداً. وفي حين سارعت السعودية إلى توقيع معاهدة عدم اعتداء مع العراق، جرت محاولات لاستيعاب القوة العراقية الصاعدة في تجمعات إقليمية كان الغرض منها وضع قيود على حركتها - فكان مجلس التعاون العربي.<sup>49</sup> في الأثناء استعرت حرب كلامية بين العراق وإسرائيل التي هدّدت بتوجيه ضربة وقائية للعراق شبيهة بضربة المفاعل النووي عام 1981، ورد العراق بالتهديد باستخدام الكيماوي المزدوج.<sup>50</sup> وفيما كانت هذه الحرب الكلامية مستعرة، أخذت أسعار النفط تنهوى في الأسواق العالمية، فاتهم العراق بعض دول الخليج باستنزافه اقتصادياً نتيجة تجاوز حصصها الإنتاجية من النفط. وفي ظل تحديات داخلية متنامية اجتمع الرئيس صدام حسين إلى السفارة الأميركية في بغداد وأبلغها أنه بصدد اتخاذ إجراءات ضد الكويت، فردّت بأن هذا شأن داخلي بين العرب وأن لا علاقة للولايات المتحدة به.<sup>51</sup>

في عام 1990 وجدت الولايات المتحدة نفسها في مواجهة عسكرية مع العراق لمنعه من السيطرة على جزء

---

<sup>47</sup> Stephen Green, *Living by the Sword: America and Israel in the Middle East, 1968-87* (London; Boston: Faber and Faber, 1988), p. 202.

<sup>48</sup> Richard W. Cottam, «United States Middle East Policy in the Cold War Era,» in: Dale. F. Eickelman, ed., *Russia's Muslim Frontiers: New Directions in Cross-Cultural Analysis* (Bloomington: Indiana University Press, 1993), pp. 28-29. See also: Green, pp. 212-217.

<sup>49</sup> محمد حسنين هيكل، حرب الخليج: اوهام القوة والنصر (القاهرة: مكتبة طريق المعرفة، 1992)، ص 176.

<sup>50</sup> محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق (القاهرة: دار الشروق، 2003)، ص 127.

<sup>51</sup> هيكل، الإمبراطورية الأمريكية، ص 125.



مهم من نفط الخليج، والتحول إلى قوة إقليمية كبرى. خلال الفترة التي تحوّل فيها النفط إلى سلعة استراتيجية كانت المصلحة الأميركية وما زالت تقتضي بقاء منابع النفط موزعة في يد أطراف عديدة وضعيفة، بما يجعلها معتمدة من جهة على الحماية الأميركية، ومن جهة أخرى تمكن واشنطن من اللعب على حبل التناقضات فيما بينها. وقد نجحت هذه الاستراتيجية في تخفيف آثار الاضطرابات التي شهدتها أسواق النفط على وقع أزمات المنطقة وحروبها. فعندما فرض العرب حظرهم النفطي على الغرب عام 1973 سارع الشاه إلى زيادة ضخ النفط إلى الأسواق الأميركية.<sup>52</sup> وفي حين اضطلعت السعودية بدور الضامن لتوفير إمدادات نفط كافية للأسواق العالمية طوال سنوات الحرب العراقية - الإيرانية، سعت واشنطن في عملية "عاصفة الصحراء" إلى منع العراق من التحكم بنحو 30 بالمئة من احتياط النفط العالمي والتحول إلى أكبر منتج ومصدر للنفط في العالم.<sup>53</sup>

مع اندلاع حرب "تحرير الكويت" راح تيار نهاية التاريخ في إدارة جورج بوش الأب ينادي بضرورة الزحف على بغداد، وبإسقاط صدام حسين والعمل على إنشاء نظام ديموقراطي في العراق (كما حدث في ألمانيا واليابان).<sup>54</sup> كما عارض هؤلاء فكرة إعادة الأسرة الحاكمة في الكويت إلى السلطة واقترحوا بدلاً من ذلك إجراء انتخابات لمعرفة هل يريد الكويتيون الإبقاء على النظام الأميري أم التحول إلى نظام سياسي آخر.<sup>55</sup> رفض حلفاء واشنطن العرب هذه الأفكار بشكل قاطع، كما تخوفوا من أن تؤدي "الكتلة العددية" للشيعية في العراق إلى ظهور دولة وفق النموذج الإيراني وتشكل امتداداً له. فيما اعتبر تيار آخر في الإدارة الأميركية أن الحديث عن الديموقراطية فكرة مثالية لن تؤدي إلا إلى وصول أنظمة إسلامية معادية للغرب إلى السلطة.<sup>56</sup>

---

<sup>52</sup> Howard Teicher and Gayle Radley Teicher, *Twin Pillars to Desert Storm: America's Flawed Vision in the Middle East from Nixon to Bush* (New York: William Morrow & co., 1993).

<sup>53</sup> Weller, pp. 81-100.

<sup>54</sup> في شأن الجدل الذي ظل دائراً حول العراق في الإدارات الأميركية المتعاقبة منذ عام 1990، انظر: أسامة أبو أرشيد "أهداف الولايات المتحدة واستراتيجياتها في العالم العربي"، في: *التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية* (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 136-183.

<sup>55</sup> Leon T. Hadar, «High Noon in Washington: The Shootout over the Loan Guarantees,» *Journal of Palestine Studies*, vol. 21, no. 2 (Winter 1991-1992), pp. 72-87.

<sup>56</sup> مروان قبالان، "العلاقات السعودية-الأميركية: انفراط عقد التحالف أم إعادة تعريفه؟" مجلة سياسات عربية، العدد 6 (كانون الثاني/يناير 2014)، ص 11.

خلال أزمة الخليج 1990 أعد المتأسرلون (Israelists) وهو تيار يؤيد إسرائيل في وزارة الخارجية، ومعظم أعضائه من اليهود الأميركيين، تقريراً عن تصورهم لمستقبل الشرق الأوسط بعد انتهاء حرب "تحرير الكويت" ورفعوه إلى الرئيس بوش الأب. لاحظ أصحاب التقرير وعلى رأسهم دينيس روس وآرون ميلر ودانييل كيرتزر تنامي نفوذ التيارات الإسلامية في المنطقة العربية، واعتبروه التحدي الأهم الذي يواجه الهيمنة الأميركية في الشرق الأوسط في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. وبما أن المنطقة لا تخلو من أسلحة الدمار الشامل، جادل هؤلاء بأن وصول الإسلاميين إلى السلطة سيجعل هذه الأسلحة في متناولهم، وهم - أضاف التقرير - قد لا يترددون في استخدامها ضد إسرائيل، خصوصاً وأن خلافهم مع هذه الأخيرة ليس قضية حدود وأراضٍ، بل يتعداها إلى وجود إسرائيل نفسها.<sup>57</sup> ولما كان الصراع العربي - الإسرائيلي أهم أسلحة الإسلاميين في حشد الدعم الشعبي لقضيتهم، رأى "المتأسرلون" ضرورة الاستمرار في دعم الحكومات العربية القائمة والتركيز على عقد مؤتمر سلام لحل الصراع المزمع، بأسرع وقت حتى تتم الاستفادة من ظروف التمزق العربي، واختلال موازين القوى الإقليمية التي أعقبت تدمير القوة العسكرية العراقية في حرب "تحرير الكويت" لفرض السلام بالشروط الإسرائيلية.<sup>58</sup>

خلال السنوات العشر التالية انتهجت الولايات المتحدة سياسة "الاحتواء المزدوج" تجاه إيران والعراق، وهي السياسة التي ابتكرها في ذلك الوقت مارتن إنديك مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى والسفير الأميركي مرتين إلى إسرائيل.<sup>59</sup> لكن هذه السياسة لم تكن فاعلة بالقدر الذي أراده الأميركيون. فمنذ عام 1998 بدأ العراق، بمساعدة أطراف عربية ودولية، بكسر طوق العزلة الذي فرض عليه منذ عام 1990. أما إيران فقد تمكنت بمساعدة كورية شمالية من تطوير ترسانتها العسكرية خاصة في مجال صناعة الصواريخ المتوسطة المدى.<sup>60</sup>

<sup>57</sup> المصدر نفسه.

<sup>58</sup> Leon T. Hadar, «What Green Peril?» *Foreign Affairs*, vol. 72, no. 2 (Spring 1993), pp. 27-42.

<sup>59</sup> Zalmay Khalilzad, «The Untied States and the Persian Gulf: Preventing Regional Hegemony,» *Survival: Global Politics and Strategy*, vol. 37, no. 2 (Summer 1995), pp. 95-120.

<sup>60</sup> F. Gregory Gause III, «The Illogic of Dual Containment,» *Foreign Affairs*, vol. 73, no. 2 (March-April 1994), pp. 56-66.

عندما وقعت هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001 ضد الولايات المتحدة، رأى بعض المحيطين بالرئيس بوش الابن أن تساهل إدارة كلينتون في استثمار الانتصار في الحرب الباردة لممارسة ضغوط على الدول العربية لإدخال إصلاحات ديمقراطية، دفع التيارات الإسلامية المقموعة في بلدانها إلى تحويل إحباطها ضد أميركا وسياساتها في المنطقة. ولم يعد المحافظون الجدد الذين سيطروا على الإدارة بعد أحداث أيلول/سبتمبر 2001 الحجج للمطالبة بتغيير الأنظمة العربية المستبدة واستبدالها بأنظمة أكثر انفتاحاً وديمقراطية<sup>61</sup>. وقد بدأ هؤلاء - يقودهم بول ولفويتز الذي عاد يروج فكرته بضرب العراق - بوضع برنامجهم لتغيير أنظمة المنطقة. وبعد إطاحة نظام طالبان بدأ الدفع باتجاه احتلال العراق<sup>62</sup>.

#### رابعاً: طموحات إيران واستراتيجيات بناء النفوذ قبل غزو العراق

على الرغم من انهيار عدوها التاريخي بنهاية الحرب العالمية الأولى، لم تتمكن إيران من استغلال فرصة سقوط الدولة العثمانية، لكي تعيد تشكيل المنطقة لمصلحتها من خلال الهيمنة على العراق الذي ظل قروناً ساحة صراع عثمانية - فارسية، لأن القوى الغربية المنتصرة سارعت في الحرب إلى تقاسم تركة الرجل المريض، وكان العراق ومنطقة الخليج من نصيب بريطانيا، ولم تلبث إيران نفسها أن وقعت تحت هيمنة البريطانيين الذين سيطروا على مقدرات البلاد وقرراها من خلال شركة النفط الأنكلو-إيرانية.

بالمثل، لم يؤد انهيار الهيمنة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية على المنطقة إلى تعزيز فرص إيران، خاصة أن الدولتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، اقتسما النفوذ في المنطقة بما يتناسب ومصالحهما خلال الحرب الباردة، فضلاً عن أن الدول العربية المستقلة حديثاً كانت قد شكلت الجامعة العربية، كإطار سياسي وأمني عربي، تحوّل في الفترة الناصرية، مع قيادة مصر للعالم العربي، إلى مركز ثقل إقليمي كان من الصعب تجاوزه. هذه العوائق دفعت إيران إلى اتباع طرق صبورة ومعقدة وغير مباشرة لبناء النفوذ، توسلت فيها بوسائل القوة الناعمة، كاختراق المجتمعات المجاورة والتبشير المذهبي. فخلال القرن التاسع عشر

<sup>61</sup> أبو ارشيد، ص 152.

<sup>62</sup> Abu Sulayb, pp. 171-186.

نجحت طهران في اختراق شيعة جنوب العراق، وفي القرن التالي، تمكنت من اختراق شيعة لبنان وزيدية اليمن وعلويي سورية<sup>63</sup>.

نتيجة ضعفها البنيوي ووجود عوائق خارجية كبيرة تحول دون تحقيق غاياتها في الهيمنة الإقليمية، وضع الشاه استراتيجيا للتعامل مع الخليج والهلال الخصيب، شملت في مرحلتها الأولى تعزيز القوة الإيرانية في الخليج العربي تحت مزاعم محاربة التغلغل الشيوعي وملء الفراغ الناجم عن انسحاب بريطانيا من شرق السويس<sup>64</sup>. وفي مرحلتها الثانية عملت طهران على تحييد العراق واحتوائه من خلال اتفاقية الجزائر لعام 1975، وتعزيز العلاقات بإسرائيل ونظامي حافظ الأسد في سورية وأنور السادات في مصر. وباستثناء تغيير العلاقة بمصر وإسرائيل، سارت الثورة الإيرانية على النهج ذاته. أما في لبنان فقد استثمرت طهران في بناء حزب الله كذراع عسكرية، انحصرت نشاطها في تحقيق مصالحها وتحويلها إلى جزء فاعل في ميزان القوى العربي - الإسرائيلي. إلا أن إيران لم تتجح مع ذلك في حجز مقعد لها على طاولة تشكيل النظام الإقليمي ورسم مستقبل المنطقة بعد انتهاء الحرب الباردة، بسبب سياسة الاحتواء المزدوج التي فرضتها واشنطن عليها وعلى العراق. فوجدت إيران نفسها مستبعدة من اتفاق الطائف اللبناني ومن عملية السلام التي أطلقها مؤتمر مدريد، فلجأت إلى وسائل العنف لتأكيد وجودها والحيلولة دون تهميش دورها، فاستهدفت بعملياتها السرية السعودية ومصر، كما جهدت لتخريب مفاوضات السلام مع إسرائيل، عبر استخدام حزب الله والفصائل الفلسطينية المعارضة على النهج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية. لكن كل ذلك لم يجد بفك العزلة عنها وإشراكها في عملية صوغ نظام ما بعد الحرب الباردة إقليمياً إلى أن لاحت الفرصة مجدداً بعد أيلول/سبتمبر 2001.

<sup>63</sup> عقيل بن محمد المقطري، "التغلغل الإيراني في اليمن والخليج"، (ورقة قدمت إلى: المؤتمر الثالث لرابطة علماء المسلمين، استانبول، تركيا، 19-21 كانون الأول/ديسمبر 2013). <<http://almoslim.net/node/196787>>.

<sup>64</sup> Andrew Scott Cooper, *Oil Kings: How the U.S., Iran, and Saudi Arabia Changed the Balance of Power in the Middle East* (Oxford: Oneworld Publications, 2011).

## خامساً: سقوط العراق: الحلم الإيراني يتحقق

تعد إيران أبرز المستفيدين من هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 ضد الولايات المتحدة. فقد قامت واشنطن في إثرها بإزالة اثنين من ألد خصوم إيران الإقليميين في الشرق، حين أطاحت إدارة بوش الابن بحكم طالبان، وفي الغرب قامت بغزو العراق وتحطيم آلتها العسكرية التي شكّلت التهديد الاستراتيجي الأبرز لإيران، والعقبة التي تحول دون توسع نفوذها الإقليمي غرباً.<sup>65</sup> وعلى الرغم من أن إيران كانت في وضع جيوسراتيجي ضعيف عموماً، إلا أنها شهدت حالة صعود في قوتها مستفيدة من الغزو الأميركي للعراق عام 2003. فقد أدى الاحتلال إلى تفكيك الدولة وحل الجيش الذي هزمها سابقاً، وخلق فراغ سلطة لم يستطع الأميركيون ملأه نتيجة عدم وجود قوات كافية لهم على الأرض، فيما كان الإيرانيون مهيبين أكثر للاستفادة من هذا الوضع بفضل استعداداتهم في أثناء التحضير للغزو، فقاموا بدعم قوى وتيارات عراقية معارضة كانوا استضافوها لزعة حكم صدام حسين، وهذه سرعان ما تحولت إلى ميليشيات قوية بعد عام 2003 حين جرى تمويلها وتسليحها. وفيما شغل الأميركيون بمواجهة "سنة العراق" الذين قاوموهم باعتبارهم محتلين، تحركت القوى والميليشيات الشيعية لملء الفراغ، واتضح ذلك جلياً مع اندلاع الحرب الأهلية بعد تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء في شباط/فبراير 2006. وعندما قررت الولايات المتحدة البدء بالانسحاب نتيجة ضغوط شعبية وبتأثير الأزمة المالية، كانت القوى السياسية الشيعية، وجهاً يتلقى دعمه من إيران، قد أمسكت بمفاصل السلطة في العراق. هكذا تمكنت إيران ليس فقط من تحييد العراق بل حتى من السيطرة عليه عبر أدواتها، معتبرة ما جرى نصراً على المستوى الاستراتيجي بعد أن كان العراق هزماً مع نهاية حرب الثماني سنوات.<sup>66</sup>

في خضم هذه التغييرات الجيوبولتيكية المهمة في المنطقة والمتأتية من تدخل عسكري خارجي أطاح معادلات القوة فيها - أي الغزو الأميركي - جاء الرئيس أحمد نجاد إلى السلطة في إيران (آب/أغسطس 2005)

<sup>65</sup> George Friedman, «Syria, Iran and the Balance of Power in the Middle East,» *Stratfor*, 22 November 2011. <<http://www.stratfor.com/weekly/20111121-syria-iran-and-balance-power-middle-east>>.

<sup>66</sup> محمد صالح صدقيان، "إيران والمتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي: وجهة نظر إيرانية"، في: *التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية*، ص 604-605.

وبدأت تتبلور لديه فكرة مشروع إقليمي إيراني مهيمن يمتد إلى الشمال من جزيرة العرب. فإطاحة صدام حسين وحكم "السنة" في بغداد فتحت الباب واسعاً أمام إيران للسيطرة ليس فقط على العراق، بل لفسح المجال أمام رؤية طموحة في طهران للهيمنة الإقليمية عبر شبكة تحالفات تُسجّت على امتداد عقود.

أدى التحالف السوري - الإيراني دوراً بالغ الأهمية في سياسة منطقة الشرق الأوسط والخليج منذ الثورة الإسلامية في إيران، إلا أن نظام الرئيس بشار الأسد لم يبدُ مهتماً في بداية عهده بتطوير العلاقات بطهران. وحتى عندما دفعته الضغوط الخارجية إلى تغيير موقفه، خاصة بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري مطلع عام 2005، ظل حريصاً على إبقاء مسافة تفصله عن إيران. وكان لدى سورية رؤية مختلفة عن طهران في شأن الغزو الأميركي، ففيما سهّلت إيران هذا الغزو، راحت سورية تنظّم عمليات المقاومة ضده انطلاقاً من فكرة أنها ستكون التالية على لائحة الأهداف الأميركية بعد العراق. 67 فوق ذلك، بدأ الرئيس بشار الأسد قلقاً من مقدار القوة التي راكمتها إيران، خاصة في الفترة التي تلت العدوان الإسرائيلي على لبنان عام 2006، الأمر الذي دعاه إلى الانفتاح أكثر على تركيا في محاولة لموازنة تأثير إيران ونفوذها، بما في ذلك القبول بوساطة تركية فتحت قنوات للتفاوض مع الإسرائيليين.<sup>68</sup> لكن وجود حزب الله كذراع ضاربة لإيران في لبنان وفي مواجهة إسرائيل، وبالاستفادة من تراجع موقع سورية الإقليمي بعد الحصار الغربي لها ودفعها إلى الانسحاب من لبنان، بدأت تظهر معالم قوس النفوذ الإيراني الممتد من مناطق غرب أفغانستان ذات الأغلبية الشيعية إلى شواطئ

---

<sup>67</sup> Marwan Kabalan, «Syrian-Turkish Relations: Geopolitical Explanations for the Move from Conflict to Co-operation,» in: *Turkey-Syria Relations: Between Enmity and Amity*, Edited by Raymond Hinnebusch and Özlem Tür (England: Ashgate, [2013]), pp. 33-34.

يرى وزير الزراعة السوري السابق أسعد مصطفى، أن إطاحة "الأقلية السنية" الحاكمة في العراق، زادت مشاعر القلق عند النظام السوري على اعتبار أن انتقال الحكم إلى "الأكثرية" في العراق لا بد من أن يعطي إسقاطات على الوضع في سورية. انظر مقابلة أسعد مصطفى في برنامج الذاكرة السياسية على قناة العربية، الجمعة 20 أيلول/سبتمبر 2013. علماً أنه لا اتفاق في موضوع الأقلية والأكثرية في العراق في ظل غياب إحصاء رسمي موثوق. فكل طرف يقول إنه يشكل الأكثرية، ويذهب حارث الضاري إلى أن الأرقام الرسمية عند غزو العراق تشير إلى 58 في المئة للسنة. أما الشيعة فيقولون إنهم الأكثرية، والحقيقة أن الأدبيات الغربية تعاملت مع الشيعة أيضاً بوصفهم الأكثرية.

<sup>68</sup> «Reshuffling the Cards? (I): Syria's Evolving Strategy,» International Crisis Group, Middle East Report no. 92, 14 December 2009.

<[http://www.crisisgroup.org/~media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/Iraq%20Syria%20Lebanon/Syria/92\\_resuffling\\_the\\_cards\\_\\_i\\_syrias\\_evolving\\_strategy.ashx](http://www.crisisgroup.org/~media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/Iraq%20Syria%20Lebanon/Syria/92_resuffling_the_cards__i_syrias_evolving_strategy.ashx)>.

المتوسط في لبنان وغزة، حيث جاءت حماس إلى الحكم بعد انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني مطلع عام 2007، لكن قوس النفوذ هذا لن يتبلور حتى حلول موعد الانسحاب الأميركي من العراق أواخر عام 2011.

تصاعد القلق العربي والغربي من تنامي نفوذ إيران الإقليمي، ولم تشارك فيه روسيا التي وجدت مصلحة كبرى فيه وذلك لأسباب عدة: **أولها**، أن الروس بدأوا يرون الصراع في منطقة الشرق الأوسط على أنه صراع سني - شيعي بشكل متزايد. ولما كانوا يواجهون حركة تمرد سنية مزمنة في شمال القفقاز، ويخشون تنامي "التطرف السني" في مناطق قريبة منهم وخاصة في جمهوريات آسيا الوسطى ذات الغالبية السنية، كان من الطبيعي أن يجدوا أنفسهم في المعسكر الإيراني.<sup>69</sup> **ثانيها**، أن النفوذ الإيراني لن يشكل تهديدًا فقط للسعودية التي كانت تعتبر الراعي الأول للحركات السنية ومنافس روسيا الكبير نفطيًا، بل سيدفع الولايات المتحدة إلى إعادة الانخراط في المنطقة لحماية السعودية وعموم الخليج. استفاد الروس كثيرًا من تورط الولايات المتحدة في العالم الإسلامي بعد هجمات أيلول/سبتمبر 2001، وتنامي النفوذ الإيراني سوف يخلق مشكلة استراتيجية كبرى بالنسبة إلى الأميركيين - في رأي الروس. وهذا أمر يناسب المصالح الروسية كثيرًا.<sup>70</sup> هذه الأسباب من بين أخرى، دعت روسيا إلى الانضمام إلى إيران في دعمها نظام بشار الأسد، خصم القوى السنية الأساسية في المنطقة (السعودية وتركيا وقطر)، خلال الثورة التي سعت إلى إطاحة حكمه.<sup>71</sup> ولهذه الأسباب أيضًا لم تكن روسيا مرتاحة إلى الاتفاق الذي توصل إليه الإيرانيون مع الأميركيين وبقية القوى الكبرى في جنيف في تشرين الثاني/نوفمبر 2013 لحل مسألة البرنامج النووي الإيراني. فاستمرار التوتر الإيراني - الغربي، والتوتر السني - الشيعي يخدم المصالح الروسية أكثر.

<sup>69</sup> انظر مروان قبلان، "روسيا والتغيرات الجيوستراتيجية في الوطن العربي"، في: *التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية*، ص 314-322.

<sup>70</sup> Lauren Goodrich, «Russia Rebuilding an Empire While it Can,» *Stratfor*, 31 October 2011. <<http://www.stratfor.com/weekly/20111031-russia-rebuilding-empire-while-it-can>>.

<sup>71</sup> George Friedman, «Russia's Strategy,» *Stratfor*, 24 April 2012. <<http://www.stratfor.com/weekly/russias-strategy>>.

## 1. رد الإقليم على "انفلاش" النفوذ الإيراني

لأسباب جيوسياسية بحتة،<sup>72</sup> رأت الرياض أن تفرّد إيران بالنفوذ في العراق، خصوصًا بعد انسحاب الأميركيين مع وجود قوي لها في سورية، سوف يطوّقها بهلال نفوذ إيراني<sup>73</sup> يمتدّ شمال شبه الجزيرة العربية في كلّ من العراق والشام<sup>74</sup>، فضلًا عن تزايد المخاوف من تصاعد التأثير الإيراني في اليمن حيث التمرد الحوثي، ومحاولات طهران التّدخّل في الشؤون الداخلية لدول خليجية عدة، حيث توجد أقليات شيعية مهمة. لذلك، عندما اندلعت الثورة السورية، لاحت للرياض فرصة لتصحيح موازين القوى لمصلحتها عبر تحويل سورية من حليف لإيران إلى خصم لها، وبما يشكّل حائط صدّ لنفوذها الإقليمي المتعاظم، بعد أن فقد العراق إمكانية القيام بهذا الدور<sup>75</sup>. تحوّلت سياسة إسقاط النظام المؤيد لإيران في دمشق وإنشاء نظام بديل يكون قريبًا من الرياض ويشكّل حليفًا استراتيجيًا لها إلى أولوية أمنية كبرى بالنسبة إلى السعودية<sup>76</sup>. من هنا دعت الرياض إلى استخدام القوة العسكرية لإطاحة النظام السوري، إمّا عبر تسليح المعارضة وإما عبر تدخّل عسكري إقليمي أو دولي. وبالمثل فعلت تركيا وقطر، لكن هذه القوى الإقليمية المتوجسة من تنامي النفوذ الإيراني لم تتبنّ سياسة إطاحة النظام السوري إلا بعد فشل جميع مساعي إبعاد دمشق عن طهران وإخراج العراق من دائرة نفوذها.

<sup>72</sup> انظر في شأن هذا الموضوع، مروان قبلان، "موقع السياسة والعلاقات الدولية في الصراع على سورية: تضارب المصالح وتقاطعها في الازمة السورية"، في: آزاد أحمد علي [وآخ.]، *خلفيات الثورة: دراسات سورية* (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 461-500.

<sup>73</sup> خالد الدخيل، "أولى ثمرات ورقتي العراق وسورية"، *الحياة*، 2013/9/29.

<<http://alhayat.com/OpinionsDetails/556608>>.

<sup>74</sup> George Friedman, «From the Mediterranean to the Hindu Kush: Rethinking the Region,» *Stratfor*, 18 October 2011. <<http://www.stratfor.com/weekly/20111017-mediterranean-hindu-kush-rethinking-region>>.

<sup>75</sup> Joseph Holliday, «The Struggle for Syria in 2011: An Operational and Regional Analysis,» (Middle East Security Report 2, The Institute for the Study of War, December 2011), p. 23.

<[http://www.understandingwar.org/sites/default/files/Struggle\\_For\\_Syria.pdf](http://www.understandingwar.org/sites/default/files/Struggle_For_Syria.pdf)>.

<sup>76</sup> Daniel Byman, «Preparing for Failure in Syria: How to Stave off Catastrophe,» *Foreign Affairs* (March 2012). <<http://www.foreignaffairs.com/articles/137339/daniel-byman/preparing-for-failure-in-syria>>.



بعد أن فازت كتلة "القائمة العراقية" التي يرأسها إياد علاوي في الانتخابات البرلمانية في آذار/ مارس 2010، سعت تركيا وقطر والسعودية إلى استغلال هذه النتائج لإخراج رئيس الوزراء المنتهية ولايته نوري المالكي من الحكم، وذلك لقربه الشديد من إيران وتبنيّه سياسات إقصائية واضحة بحق سنّة العراق. وقد حاولت هذه الدول كسب تأييد سورية في الصراع الدائر مع إيران بشأن شخصية المالكي. بدت سورية مستعدة لدعم ترشيح علاوي في البداية، لكنها تحت الضغط الإيراني، ونتيجة وجود تفاهم أميركي-إيراني لاستبعاد علاوي، عادت وأيدت المالكي الذي نجح في تشكيل حكومته بعد نحو ثمانية شهور من الشلل السياسي. أغضب هذا الموقف الدوحة وأنقرة اللتين كانتا حليفتي دمشق حينها، كما أثار حفيظة الرياض التي كانت تسعى إلى مزيد من التقارب مع سورية أملاً في إبعادها عن إيران<sup>77</sup>.

بالمثل، أدى إسقاط حكومة سعد الحريري في لبنان في كانون الثاني/ يناير 2011، أي قبل شهرين فقط من اندلاع الثورة السورية، ومن ثم إطاحة اتفاق الدوحة الذي أنهى الاستعصاء الدستوري الناجم عن فشل انتخاب رئيس جديد للجمهورية في لبنان عام 2008، إلى إثارة قطر وتركيا من جديد، وهما الطرفان راعيا الاتفاق في لبنان. كما أفضى فشل الوساطة التركية - القطرية لحلّ الأزمة، إلى مزيد من التباعد عن سورية. الاعتقاد أن دمشق كانت تمنع أيضاً حصول تقدّم في ملف المصالحة الفلسطينية، زاد الأمور تعقيداً<sup>78</sup>.

اشتداد الضغط على دول مجلس التعاون الخليجي نتيجة أحداث البحرين التي جاءت في ظروف الربيع العربي واتهام إيران بتأجيجها، ساهما أيضاً في تحديد توجهات هذه الدول من الثورة السورية. حاولت دول الخليج، خاصة قطر، وكذلك تركيا في بداية الأمر، تطويق الأزمة عبر إقناع دمشق التي كانت لا تزال حليفاً، باتخاذ خطوات إصلاحية تمتصّ غضب المحتجين وتمنع التصعيد. لكن النظام لم يتزحزح. ومع اتضاح فشل هذه المساعي واتساع نطاق الاحتجاجات، وأخذاً في الحسبان نتائج الثورات العربية، بدا أن النظام في سورية ساقطاً لا محالة.

<sup>77</sup> Marwan Kabalan, «The New Middle Eastern Alignment,» *Syria Today* (February 2012).

<sup>78</sup> Marwan Kabalan, «Qatar Aspires for Key Regional Role,» *Gulf News*, 16/3/2012.

<<http://gulfnews.com/opinions/columnists/qatar-aspires-for-key-regional-role-1.995224>>.

بادرت تركيا أول الأمر إلى استغلال حالة الارتباك التي يعيشها النظام للدفع باتجاه تشكيل حكومة وحدة وطنية تشمل ممثلين عن تنظيم الإخوان المسلمين، الأمر الذي يضمن لها نفوذًا واسعًا داخلها على اعتبار أن هؤلاء حلفاؤها. لكن المحاولة فشلت، وهو ما دفع أنقرة إلى إشهار عدائها للنظام عبر احتضان معارضاته السياسية ثم العسكرية، عندما بدأت الثورة تأخذ منحى أكثر عنفًا<sup>79</sup>.

أرادت تركيا أن تكون المستفيد الأكبر من عملية التغيير في سورية لأسبابٍ سياسية، واقتصادية وجيوسياسية. سياسيًا، أخذت تركيا في ظروف الربيع العربي تقوم بدور الأب الروحي للحركات الإسلامية في المنطقة، وهي باحتضانها التيارات الإسلامية المعارضة في سورية أرادت أن تكون صاحبة الكلمة الفصل في المستقبل في حال تمكّن هؤلاء من سلوك طريق السلطة كما فعل رفاقهم في دول عربية أخرى. هذا الأمر سيعظم نفوذ تركيا المتنامي أصلاً ليس في سورية فحسب، وإنما في عموم المنطقة. جيو - سياسيًا وهو الأهم، رأت تركيا أن تفرد إيران بالنفوذ في العراق، خصوصًا بعد انسحاب الأميركيين مع وجود نفوذ إيراني كبير في سورية، سوف يطوّقها بهلال نفوذ إيراني يمتدّ من حدود أرمينيا إلى ساحل المتوسط<sup>80</sup>. لذلك، عندما اندلعت الثورة السورية، لاحت لتركيا، مثلها مثل السعودية، فرصة كبيرة لتصحيح موازين القوى لمصلحتها من خلال إصرارها على إسقاط النظام المؤيد لإيران في دمشق وإنشاء نظامٍ بديل يكون قريبًا منها ويشكّل حليفًا استراتيجيًا لها<sup>81</sup>.

فضلاً عن ذلك، كانت تركيا مهتمة بتنويع مصادر الطاقة التي تحتاج إليها، إذ تحصل على 60 في المئة من احتياجاتها من الغاز من روسيا، فيما تحصل على معظم الباقي من إيران. وعلى الرغم من محاولات أنقرة لتقليل اعتمادها على الغاز الروسي - نظرًا إلى ميل روسيا إلى استخدام صادراتها من الطاقة أدواتٍ للضغط السياسي على زبائنها - وإيجاد بدائل للغاز الإيراني أيضًا، إلا أنها لم تنجح في تحقيق نتائج مهمة. وتشكّل قطر أحد

<sup>79</sup> Damla Aras, «Turkish-Syrian Relations Go Downhill,» *Middle East Quarterly*, vol. 19, no. 2 (March 2012), pp. 41-50.

<sup>80</sup> Mustafa Akyol, «Turkey vs. Iran: The Regional Battle for Hearts and Minds,» *Foreign Affairs* (March 2012). <<http://www.foreignaffairs.com/articles/137343/mustafa-akyol/turkey-vs-iran>>.

<sup>81</sup> Bulent Aliriza and Stephen Flanagan, «The End of Zero Problems? Turkey and Shifting Regional Dynamics,» Center for Strategic and International Studies [CSIS], 12 April 2012. <[http://csis.org/files/publication/120413\\_gf\\_aliriza\\_flanagan.pdf](http://csis.org/files/publication/120413_gf_aliriza_flanagan.pdf)>.

البدائل المحتملة للغاز الروسي والإيراني بالنسبة إلى تركيا،<sup>82</sup> لكن روسيا التي تخشى تحرر زبائنها من سيطرتها على موارد طاقتهم، ضغطت على سورية لرفض فكرة مدّ أنابيب للغاز من قطر إلى تركيا وأوروبا عبر الأراضي السورية<sup>83</sup>، كذلك فعلت إيران التي طرحت مشروع غاز بديلاً يسمى "مشروع الغاز الإسلامي"، يمتد من أراضيها عبر العراق إلى سورية، وجرى التوقيع على مذكرة إنشائه بين الدول الثلاث في صيف عام 2011.<sup>84</sup>

بالنتيجة، وجدت القوى الإقليمية، المتوجسة من النفوذ الإيراني، في الثورة السورية فرصة للتأثير في موازين القوى بعد الانسحاب الأميركي من العراق وانفلاش النفوذ الإيراني، وذلك عبر تحويل سورية من حليف إيران إلى خصم لها، وبما يشكّل حائطاً صلباً لنفوذها الإقليمي المتعاظم، بعد أن فقد العراق إمكانية القيام بهذا الدور.<sup>85</sup>

## 2. إيران: محاولة ادراك الحلم الإمبراطوري

مع مطلع عام 2010، كان احتمال ظهور قوس نفوذ إيراني مدعوم روسياً جنوب تركيا وشمال شبه الجزيرة العربية، أمراً شبه مؤكد، ولكن بحلول عام 2013، تلاشى هذا الحلم، وذهبت معه سدى مساعي أحمدى نجاد وتياره من الأصوليين لبناء إيران الكبرى. هذا الفشل قاد إلى عملية إعادة مراجعة جذرية وعميقة داخل النظام الإيراني، في ما يتعلق بمكانة إيران الإقليمية وحتى أهمية برنامجها النووي وقيمتها. كان بناء النفوذ الإقليمي الإيراني الهاجس الأكبر لحكومة الرئيس نجاد طوال فترة ولايته (من عام 2005 إلى 2013) وبما يمكنه من فرض إرادته على دول الخليج العربية من جهة، ومقايسة البرنامج النووي بإقرار أميركي واعتراف دولي بميزان القوى الإقليمية الجديد، إلا أن هذا المشروع بدا طموحاً جداً حتى يتحقق.

<sup>82</sup> طلال عتريسي، "الأهداف والمصالح الإيرانية في النظام العربي بعد الثورات"، في: التدايعات الجيوستراتيجية للثورات العربية، ص 367.

<sup>83</sup> «Russia's Energy Plans for Turkey», *Stratfor*, 20 March 2012.

<<http://www.stratfor.com/sample/analysis/russias-energy-plans-turkey>>.

<sup>84</sup> "اتفاق غاز إيراني عراقي سوري"، الجزيرة.نت، 2011/7/25.

<<http://www.aljazeera.net/ebusiness/pages/ed45d409-1d6a-4d78-9558-07397a7bf59e>>.

<sup>85</sup> Holliday, p. 23.

خلال العقد التالي لهجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001، وخصوصًا بعد وصول أحمدى نجاد إلى الحكم في إيران، انصرفت إيران بدأب إلى بناء مقومات قوة إقليمية مهمة، مستفيدة من الارتفاع الكبير في أسعار النفط، ومن بيئة جيوبوليتيكية تغيرت لمصلحتها بشدة بفعل التدخل العسكري الأميركي المباشر، فتحوّل العراق كما أوضحنا تدريجًا من خصم إلى منطقة نفوذ إيرانية مع وصول حلفاء طهران من الأحزاب والتيارات السياسية والدينية إلى السلطة والسيطرة على مقدرات الدولة العراقية، بالمثل استقادت إيران من ظروف العزلة الإقليمية والدولية التي ضربت على نظام بشار الأسد في عقب اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري، وتوجيه أصابع الاتهام إلى النظام السوري. كما استغلت إيران العدوان الإسرائيلي على لبنان عام 2006 والعدوان على غزة مطلع عام 2009 لتجعل من نفسها قائدًا لمحور "المقاومة" في المنطقة، وطرفًا لا يمكن تجاوزه في ميزان الصراع العربي - الإسرائيلي، متجاوزة حدود دورها الإقليمي الذي اقتصر، قبل سقوط العراق، على منطقة الخليج.

من جهة أخرى، بدت إيران مهتمة بالحصول على التكنولوجيا النووية القادرة على إنتاج سلاح نووي، من دون أن تسعى إلى امتلاك السلاح نفسه، فمثل هذا البرنامج يعطي إيران قدرات تفاوضية كبيرة مع واشنطن، من جهة، كما أنه، من جهة أخرى، يحوّل الانتباه عن تنامي نفوذها الإقليمي، فهو يجعل خصومها مهتمين أكثر بوقف برنامجها النووي بدلًا من التركيز على تعاضم نفوذها في المنطقة. لهذا السبب ظلت إيران لسنوات عديدة وفق تقديرات الاستخبارات الغربية "بعيدة بضعة شهور فقط عن امتلاك سلاح نووي". وفيما كان العالم مهتمًا بتطورات الملف النووي ومستغرقًا في لعبة الإجابة عن سؤال هل كانت إيران تخطط لامتلاك سلاح نووي أو تسعى إليه أم لا، كانت طهران تطور ترسانة كبيرة من الأسلحة التقليدية من دون ضجة كبيرة.

مع مجيء إدارة أوباما إلى الحكم كانت طهران تعدّ نفسها للحصاد الأكبر، أي ربط مناطق النفوذ التي بنتها بدأب خلال العقد الماضي في المنطقة الممتدة من هيرات غرب أفغانستان، حيث تقطن قبائل شيعية قريبة من إيران حتى ساحل المتوسط في بيروت وغزة، بالاستفادة من عوامل القوة الذاتية التي استجمعتها من عسكرية وغيرها. كان الوجود الأميركي في العراق يشكّل المانع المادي الأكبر الذي يمنع اتصال قوس النفوذ الإيراني هذا. لذلك نظرت إيران بارتياح إلى فوز أوباما الذي وعد بسحب القوات الأميركية من العراق بنهاية عام 2011، ومن أفغانستان بحلول منتصف عام 2014. وقد شكلت هذه الوعود طلائع الإنكفاء الأميركي في المنطقة،

وكانت إيران تستعد لملء الفراغ عندما حل الربيع العربي وقلب الحسابات الإيرانية.<sup>86</sup>

هكذا فيما كانت القوات الأميركية تنسحب من العراق وتتسلم إيران النفوذ مكانها، كانت قواعد النفوذ الإيراني في سورية تتأكل، وما بدا أنه فرصة لإعلان قيام الإمبراطورية، تحول إلى معركة شرسة للدفاع عن استثمارات استغرق بناؤها عقداً من التخطيط والتفكير والعمل. بالتوازي مع ترشح النفوذ الإيراني في سورية، وانفلات الوضع الأمني في العراق الذي يحكمه حلفاء طهران، بدأت إدارة أوباما تفرض العقوبات الاقتصادية الأشد على إيران، لإجبارها على الإذعان لمطالب تفكيك برنامجها النووي. وعلى الرغم من صعوبة تحديد هل نتأتى مشكلات إيران الاقتصادية بشكل رئيس من العقوبات الأميركية والدولية أم من الأزمة الاقتصادية التي ضربت العالم عام 2008 وقلصت الطلب العالمي على النفط، أم من عيوب بنويّة في الاقتصاد الإيراني، فإن الانطباع بأن العقوبات الاقتصادية أدت إلى تقويض الاقتصاد الإيراني حول البرنامج النووي من أداة تعظيم لنفوذ إيران، إلى عامل مدمر لاقتصادها بسبب العقوبات. هنا فقط بدأ الملف النووي الذي برز كوسيلة لتحقيق غاية، هي تحويل إيران إلى دولة إقليمية مهيمنة، يتحول إلى عبء يمكن أن يهدد ليس فقط المشروع الإيراني الإقليمي بل نظام الجمهورية الإسلامية نفسه. في هذه اللحظة التي بلغت فيها الضغوط الاقتصادية والسياسية مداها، حصل تحول في تفكير مرشد الثورة والنخبة الحاكمة المحيطة به، فكان قرار استبعاد رموز التيار القومي المتشدد الذي مثله أحمدى نجاد وتياره الذي هندس ونفذ فكرة قوس النفوذ الإيراني، والمجيء برئيس "واقعي" لإنقاذ ليس المشروع بل النظام نفسه، حسن روحاني، أما الثمن فهو التخلي عن الأداة التي كادت تتحول من مصدر قوة إلى نقطة ضعف قاتلة، أي البرنامج النووي. وإذ ساد شعور قوي بأن سياسات أحمدى نجاد الجبهوية أدت إلى خسائر استراتيجية واقتصادية عظيمة لإيران، أصبح انتزاع اعتراف أميركي ودولي بحقها في امتلاك برنامج نووي، يسمح لها بتخصيب اليورانيوم لأغراض مدنية، الهاجس الأكبر للقيادة الإيرانية، بعد أن تلاشى حلم التحول إلى قوة إقليمية مهيمنة (Hegemon). هكذا تحولت إيران من الهجوم إلى الدفاع، وأصبح همها الأساس مواجهة مشكلاتها الاقتصادية والاحتفاظ بما تستطيع الحفاظ عليه من مكاسب تحققت لها خاصة في العراق، في مواجهة هجوم مضاد يسعى فيه خصومها إلى تقويض نفوذها على امتداد المنطقة.<sup>87</sup>

<sup>86</sup> Friedman, «From the Mediterranean to the Hindu Kush».

<sup>87</sup> انظر تعقيب محبوب الزوبري على: عتريسي، "الأهداف والمصالح الإيرانية في النظام العربي بعد الثورات"، ص 395-403.

## سادساً: الربيع العربي، السياسة الأميركية وموازن القوى الإقليمية

عندما قامت الولايات المتحدة بغزو العراق مطلع عام 2003، كانت إيران في وضع استراتيجي ضعيف وهش، وعندما انسحبت الولايات المتحدة أواخر عام 2011، تبين مدى التغيير الاستراتيجي الذي طرأ في المنطقة، إذ امتدّ قوس النفوذ الإيراني من غرب أفغانستان إلى ساحل المتوسط، مع ظهور ما يشبه الإقرار الأميركي والتسليم الإقليمي بأن إيران ربحت الجولة في العراق، بعد أن أوصلت حلفاءها إلى السلطة فيه وحولته بذلك من خصم عنيد إلى تابع. هكذا بدت الصورة عندما فتحت الثورة السورية بارقة أمل أمام خصوم إيران لتطويق نفوذها المتصاعد، ودفعه إلى التراجع أيضاً (Rollback)، فتحوّلت سورية بديلاً من العراق كساحة صراعٍ وتنافس، الأمر الذي أدى إلى نشوء حالة استقطاب مريرة.

منذ البداية، جاء التعاطي الأميركي مع الثورة السورية - التي مثلت مفاجأة كبيرة لواشنطن - مرتبكاً، كما كان الحال تجاه معظم ثورات الربيع العربي. وكانت إدارة الرئيس أوباما منشغلةً تماماً بموضوع إتمام الانسحاب من العراق والخروج من الأزمة المالية التي شلت الاقتصاد الأميركي والغربي عموماً. وعندما اندلعت الثورة السورية، لم تخف واشنطن خشيتها من انعكاس حال عدم الاستقرار في سورية على وضع قواتها في العراق، لذلك كانت تفضّل تحقيق أكبر قدرٍ من الهدوء على مستوى الإقليم حتى تتمكن من إنجاز سحب قواتها، ما يفسّر تلكتها في استغلال الأزمة السورية لتغيير موازين القوى الإقليمية، على الرغم من تعالي الدعوات للقيام بذلك في واشنطن والعالم العربي<sup>88</sup>. ولأنها كانت تعدّ الانسحاب من العراق أولوية - لتحقيق وعدٍ انتخابي أطلقه الرئيس أوباما، ولإعادة تموضع استراتيجي على مستوى المنطقة والعالم - باعتبارها غير راغبة في القيام بمغامراتٍ عسكرية جديدة نتيجة الصعوبات الاقتصادية والتعقيدات الجيوسياسية للمشهد السوري - اتبعت إدارة أوباما منذ البداية سياسة التصعيد المضبوط والنفس الطويل في الصراع السوري ليكون من جهة مدخلاً إلى احتواء النفوذ الإيراني الذي تضخم كثيراً بعد غزو العراق، لكن من

<sup>88</sup> بيان صحفي للسيناتور جون ماكين بخصوص الوضع في سورية، 2012/4/23:

«Statement by Senator John McCain (R-AZ) on the President's Announcement Today and the Situation in Syria»:

<[http://www.mccain.senate.gov/public/index.cfm?FuseAction=PressOffice.PressReleases&ContentRecord\\_id=E00EBFE8-DCB2-D2F2-F70E-973DD74D361A](http://www.mccain.senate.gov/public/index.cfm?FuseAction=PressOffice.PressReleases&ContentRecord_id=E00EBFE8-DCB2-D2F2-F70E-973DD74D361A)>.

دون أن يؤدي من جهة أخرى إلى استفزاز الإيرانيين كثيرًا، ومن ثم القضاء على فرص التوصل إلى حل سلمي لمسألة برنامجهم النووي<sup>89</sup>. وإذا كانت واشنطن ترى ضرورة منع تشكّل قوس نفوذ إيراني يمتدّ شمال شبه جزيرة العرب، وجنوب تركيا وشرقها، لما يمثّله ذلك من خطرٍ على مصالحها ومصالح حلفائها في المنطقة، إلا أنها كانت حريصة مع ذلك على عدم الانجرار إلى مواجهة مع طهران.

لكن الثورة السورية وعلى الرغم من التريث الأميركي، هددت مع ذلك مجمل الترتيبات الإيرانية في المنطقة؛ فاستمرار دعم طهران نظام الأسد، بمواجهة المعارضة المسلحة، في وقت كانت تشتبك فيه مع الغرب الذي يفرض عليها عقوبات قاسية بسبب برنامجها النووي، أخذ يستنزف القوة الإيرانية في حرب متعددة الجبهات ويهدد إنجازاتها. فعلى الرغم من أن إيران حققت مكاسبَ كبيرة نتيجة الفشل الاستراتيجي الأميركي في المنطقة، إلا أن الثورة السورية باغتتها قبل أن تتمكن من حصاد استثماراتها السياسية الطويلة، فلم تستطع - بعد سنوات من المواجهة مع أميركا ودول الغرب عمومًا - انتزاع اعترافٍ بمكانتها الإقليمية الجديدة. من جهة أخرى، حاولت إيران دعم نظام الأسد للقضاء بسرعة وحزم على الانتفاضة الشعبية في سورية، لكنها فشلت. بالمثل لم تتمكن النخب الحاكمة الحليفة لها في بغداد من إخضاع المعارضة السنية بعد خروج الأميركيين، فأخذ يتشكل معسكر مقاومة واسع للنفوذ الإيراني تقوده السعودية التي ظهرت باعتبارها التحدي الأكبر الذي يعوق التمدد الإيراني.

حاولت إيران الحد من احتمالات الفشل في المحافظة على نفوذها الإقليمي بسبب الثورة السورية، ومن انتقال عدوى الاضطرابات الأمنية إلى العراق عبر سعيها إلى الاستفادة من سياسة أوباما المعلنة في منعها من امتلاك قنبلة نووية، ورأت في ذلك فرصة لتفكيك المعسكر المناوئ لها عبر تقديم تنازلات في المفاوضات النووية مع القوى الكبرى. وبتوقيعها الاتفاق النووي المؤقت في جنيف في تشرين الثاني/نوفمبر 2013، بدا وكأن طهران نجحت في كسر قيود العزلة المفروضة عليها أميركيًا، وأصبح في إمكانها الجلوس على أي طاولة دولية أو إقليمية لمناقشة أوضاع المنطقة، كطرف معترف به، إلا أن هذا لم يحصل، فقد جرى استبعاد إيران من مؤتمر جنيف 2 الذي ناقش فرص تسوية الأزمة السورية دبلوماسيًا، والذي عُقد في كانون الثاني/يناير - شباط /فبراير

---

<sup>89</sup> Jon B. Alterman, «Getting Syria Right,» Center for Strategic and International Studies (CSIS), 20 April 2012. <<http://csis.org/publication/getting-syria-right>>.

من عام 2014. صحيح أن إيران أثبتت قدرتها على التعطيل ومنع الوصول إلى حل في سورية بغيابها، لكنها فقدت في المقابل قدرتها على تشكيل المنطقة، حتى ولو بالاتفاق مع الأميركيين.

### سابعاً: صورة النظام الإقليمي المقبل

شكل الحفاظ على سورية حليفة، بعد السيطرة نسبياً على العراق، المفتاح الرئيس لنجاح المشروع الإيراني، لكن الإيرانيين فشلوا في ذلك. صحيح أن النظام في سورية ما زال قائماً، لكنه غداً ضعيفاً ومثخناً وغير قادر على استعادة السيطرة على كامل البلد. وكان الوجه الآخر لهذا الإخفاق هو صعود تيارات إسلامية بدأت ترى في إيران - وليس الغرب أو أميركا كما كان الحال سابقاً - عدواً رئيساً تجب مقارعته. وبالتزامن مع الإخفاق في سورية، وضع تدهور الوضع الأمني في العراق إيران في موقع دفاعي، فيما كانت تستعد مع خروج الأميركيين في نهاية عام 2011، للإعلان عن أكبر تغيير تشهده موازين القوى الإقليمية منذ الحرب العالمية الأولى. وفي ضوء ما يجري في العراق وسورية، لم تعد إيران قادرة على تحمل الأعباء الاقتصادية الناجمة عن العقوبات المترتبة على استمرارها في لعبة النووي، في وقت يتأكل فيه نفوذها الإقليمي، فكان لزاماً عليها إعادة النظر في سياستها الخارجية. صحيح أن الخطاب والأيديولوجيا ما زالا على حالهما، إلا أن الواقع والسياسات الاستراتيجية الإيرانية تتغير. في المقابل، كانت الولايات المتحدة تقوم هي الأخرى بتغيير استراتيجيتها وإعادة النظر في سياستها. خلال العقد الماضي، حاولت إلقاء هزيمة بالقاعدة من خلال استخدام القوة في أفغانستان ورفع راية "الحرب على الإرهاب"، ثم تورطت بعد ذلك في حرب العراق، لكن الولايات المتحدة ما عادت قادرة على الاحتفاظ بوجود عسكري كبير ودائم لها في المنطقة، فيما أخذ هذان الوجود والاستنزاف يسمحان لدول أخرى مثل روسيا بالمبادرة إلى توسيع نفوذها سياسياً وعسكرياً من دون أن تهتم كثيراً بالموقف الأمريكي.

ما زالت الولايات المتحدة بالتأكيد تولى اهتماماً كبيراً لمحاربة "الإرهاب"، لكنها أخذت تتبع استراتيجية جديدة في التعامل معها. وقد قدمت في سورية نموذجاً لذلك عندما امتنعت عن التدخل عسكرياً ضد نظام الرئيس بشار الأسد، حتى لا تسمح لخصومه بالوصول إلى السلطة، بل فضلت بدلاً من ذلك أن تسمح للأطراف السورية المتنازعة بأن تتقاتل بعضها مع بعض وأن توازن قوة بعضها بحيث لا يستطيع طرف أن ينتصر على الآخر.



مقاربة موازين القوى المحلية في سورية كانت البديل الذي استخدمته واشنطن للتدخل العسكري المباشر، واستتباعاً سوف يحاول الأميركيون إنشاء ميزان قوى جديد بين إيران وخصومها من الدول العربية، يحل محل الميزان القديم الذي نسفوه بغزوه العراق. لا شك أن الانفتاح الأميركي على إيران يهدف في جزء منه إلى إعادة إنشاء هذا الميزان الذي ركنت إليه واشنطن لعقود طويلة لمنع هيمنة طرف على شؤون المنطقة التي ما زالت تستأثر باهتمامها. وبناء عليه لن تبدو المنطقة مختلفة كثيراً إذا حصل توافق إيراني - أميركي، فسياسة أميركية داعمة بشكل مطلق لإيران هي سياسياً غير ممكنة، لأن فكرة ميزان القوى الذي تسعى إدارة أوباما إلى إنشائه لن تعني انتهاء العلاقة بالسعودية أو برودها مع إسرائيل، فميزان القوى يستمر في تأدية وظيفته فقط إذا حافظت واشنطن على علاقة متقاربة بجميع الأطراف بحيث تقوم بموازنة بعضها ضد بعضها الآخر.

فوق ذلك، لا تبدو إيران مهياًة للعب دور قوة إقليمية مهيمنة، كما كان يبدو قبل ثورات الربيع العربي، حتى في ظل تقارب من الولايات المتحدة، وذلك لأسباب بنيوية منها أن الناتج الإجمالي القومي لإيران ذات الثمانين مليوناً - بحسب إحصاء 2013 - لا يتجاوز 350 مليار دولار، الأمر الذي يجعلها في المرتبة الثانية والثلاثين على مستوى العالم، حيث تسبقها دول صغيرة مثل فنزويلا وكولومبيا وتايلاند والإمارات العربية المتحدة على التوالي، فيما يبلغ ناتج السعودية ضعف الناتج الإيراني، وذلك بحسب تقديرات صندوق النقد الدولي لعام 2013.<sup>90</sup> فقدت إيران خلال سنوات المواجهة مع الغرب والاستنزاف في مغامرات على مستوى الإقليم إمكانية التحول إلى قوة اقتصادية إقليمية كبرى على غرار تركيا. فضلاً عن ذلك، تقع إيران من الناحية الجيوسياسية على أطراف المنطقة، بخلاف تركيا مثلاً الأقرب إلى المركز، وتبدو محاطة ببيئة غير صديقة، فهي إن حاولت التوجه سعياً وراء النفوذ إلى آسيا الوسطى مثلاً، سوف تكون روسياً لها بالمرصاد، أما شرقاً فهناك أفغانستان التي لا يوجد فيها ما يغري، فيما لا تشكل باكستان صديقاً يمكن الركون إليه، لذلك تجد إيران نفسها منجذبة دائماً إلى الغرب، لكن هنا أيضاً تصطدم بالعرب المختلفين بالقومية واللغة والمذهب، والمستعدين دائماً لمقارعتها وصد نفوذها، خاصة بعد موقفها من الأزمة السورية، وقد أبدوا كل الاستعداد لذلك في السنوات الثلاث الأخيرة.

<sup>90</sup> تقديرات صندوق النقد الدولي للناتج الإجمالي لدول العالم للعام 2013، على الرابط:

صحيح أن إيران تبدو إقليمياً الأكثر نشاطاً وحيوية، إلا أن هذا النشاط يشكل في العمق نقطة ضعف إيران الأبرز، فهذا الدور لا يشتمل قوتها ويستنزف مواردها فحسب، بل يضعها في صدام مع معظم قوى الإقليم، العرب والأتراك والباكستانيين، فضلاً عن الغرب الذي لا ينظر بارتياح إلى الدور الإيراني. كل هذا يجعل إيران دائماً في وضع دفاعي. من هنا تبدو إيران مدركة حدود قوتها، ويمكن ملاحظة ذلك في التناقض الظاهر بين خطابها وسلوكها. ففيما كانت تصريحات المسؤولين الإيرانيين، خصوصاً في عهد أحمدي نجاد، تُعدّ العالم لسيناريو قيام الساعة، كانت تصرفاتهم في السياسة الخارجية محسوبة بدقة فائقة، فقد قاموا بدعم أطراف ثلاثة مثل حزب الله والحوثيين، وإرسال مستشارين ومعونات ودعم عسكري إلى مختلف أنحاء المنطقة لبناء نفوذ هنا وهناك، لكنهم كانوا حذرين جداً في استخدام قواتهم بشكل مباشر. فإيران تفضل دائماً القتال عبر أدوات – أي حروب الوكالة – بدلاً من الانخراط في مواجهات مباشرة مفتوحة حتى مع أطراف أضعف منها.

جميع هذه العوامل المرتبطة بالبيئة الإقليمية والدولية، وتلك المتعلقة بالإمكانات الذاتية لأطراف موازين القوى في المنطقة، سوف لن تسمح لإيران بفرض نوع من الهيمنة. الأرجح أن تستمر حالة السيولة وعدم الاستقرار التي يشهدها الإقليم الآن، لبضع سنوات مقبلة حتى يستقر الأمر على ميزان قوى جديد. الميزان الجديد سوف يحل محل القديم الذي هشمه الأميركيون بغزوه العراق وإخراجه من المعادلة، فسمحوا في أثره "بانفلاش" النفوذ الإيراني نتيجة عجزهم عن ضبط الوضع في مرحلة ما بعد الاحتلال. بيد أن ما عجز الأميركيون عن فعله – أي ضبط النفوذ الإيراني – تولت القيام به الديناميات الإقليمية التي فرضت واقعاً جديداً أفسد على الإيرانيين الفرصة الأكثر جدية التي لاحت لهم منذ زمن بعيد لتشكيل المنطقة وفق رؤيتهم وفي خدمة مشروعهم.